



د. عبدالله بن إبراهيم العسكر •

تاريخ الشورى

محددة، لضمان نجاحها. على أن تاريخ المسلمين بعد سقوط تجربة الخلافة الراشدة، جعل من الصعوبة استمرار تطبيق الشورى.

استمر تاريخ الشورى يسير بتوادة وصعوبة، وشهد العالم الإسلامي في العصور الوسطى تطبيقات شوروية هنا وهناك خصوصاً على مستوى الإدارة الدنيا والوسطى، وبقيت الإدارة العليا بمنأى عن الشورى الحقيقية التي عرفها مجتمع الخلفاء الراشدين.

وقد وجدت الإدارة العليا آنذاك في تهريرات الماوردي الواردة في كتابه: «الأحكام السلطانية» ما يغنيها ويبرئ ساحتها امام المجتمع في تبني الشورى التي عرفها المسلمون إبان الخلافة الراشدة.

كان الماوردي من المفكرين الإسلاميين، ذو ثقافة واسعة، وهو عالم يتسم بروح الواقعية، وهو من كتب التهريرات الدينية للأخذ بما سماه: المتغلب العادل، وهو يقصد أن للمتغلب على سلطة سياسية لديه شرعية طالما أنه يتمتع بالعدل، ويطبق مبادئ العدل. هذا التخريج له أساس، لكن ما يهمننا هنا أنه ولجّه قبولاً واسعاً من المجتمع الإسلامي، وبالتالي أصاب الماوردي رحمه الله فكرة الشورى مقتلاً، ولم نعد نسمع عن اجتهادات لا من قبل الفقهاء، ولا من قبل السياسة أو رجال الإدارة الإسلامية تصب في صالح تفعيل فكرة الشورى.

عاشت فكرة الشورى، وتطبيقات الشورى ربحاً من الزمن وهي فكرة مجردة، ومع ضعف الدولة العباسية وبروز ديولات وإمارات منسقة عن جسيم الدولة العباسية، ظهرت إشارات عن فكرة الشورى حيث اتخذها بعض المتغلبين أساساً بشرعيته، على أن تلك الشرعية تصطدم مع أساس الفكر الشوري، صحيح أن بعض الأمراء المتغلبين، خصوصاً أمراء العسكر عقد مجالس شوروية، كما حدث عن إمارة الجنايبين في شرق الجزيرة العربية، خلال القرن الثالث والرابع الهجريين، لكن الإصح أن أمراء الدولة الجنايبية قلما أخذوا بما يصدر عن المجلس الشوري، وهنا تكمن مشكلة مفصلية وهي: التعارض بين الشورى، وتسلط الحاكم.

بحث الفقهاء في عصور متأخرة هذا التعارض، ووجدوا أن القرآن الكريم، وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم يقولان بصحيح العبارة إن لا تعارض. كيف ذلك؟ عندما تحدث القرآن عن الشورى قال: ((وشاورهم في الأمر))، وأضاف: ((وإذا عزمت فتوكل على الله)) هذا يعني أن الرئيس أو الرجل الأول عليه المشاورة، لكن صوته يحمل وزناً يعادل أصواتاً متعددة، وبالتالي إذا أعطى الرئيس صوته لأمر ما، أو إختار أمراً ما، فإن هذا الأمر يجب اعتماده، هذا التخريج يتسق مع الوزن الكمي للأصوات في الديمقراطية الحديثة.

بقي أمر آخر يخص الشورى، وقد أطلال الفقهاء ورجال الفكر السياسي الإسلامي الوقوف عنده وهو: هل الشورى ملزمة أم أنها غير ملزمة، وهذا الأمر له حديث آخر.

خلصنا في الحديث السابق وعنوانه: «فكرة الشورى» إلى أن فكرة الشورى سابقة لفكرة الديمقراطية، وأن فكرة الشورى هي فكرة دينية، جاءت في التوراة. وهي بالتالي لا تشبه فكرة الديمقراطية التي يرى أكثر الفلاسفة، وأهل الفكر أنها فكرة يونانية خالصة.

وأيضاً كان، الأمر فبين الفكرتين تداخل لا يمكن تجاهله، لكن بينهما فرقاً واضحاً، وهو أن مرجعية فكرة الشورى مرجعية دينية، بينما مرجعية فكرة الديمقراطية مرجعية دنيوية. وهذا لا يضير كلا من الفكرتين، طالما أن هدفهما هو تداول الفكر، وتوسيع دائرة اتخاذ القرار، والوقوف في وجه الفكر التسلطي.

مرت فكرة الشورى بتاريخ طويل، وللاسف فإن أغلب ما وصلنا لا يعطينا فكرة واضحة عن الشورى في العصور القديمة، ولا عن كيفية تطبيقها، ثم إن سيادة الفكر اليوناني، جعل فكرة الشورى تتوارى. لماذا؟ الجواب هو: الفكر اليوناني فكر يرفض الإحالة إلى عالم الغيب، ويغلب عالم الشهادة.

وموضوع الغيب والشهادة موضوع طويل، لا أرى التوسع فيه في هذا الحديث. إلا ما له علاقة بتاريخ الشورى.

قلت: إن أساس فكرة الشورى جاءت من عالم الغيب وحيث إن الفكرة لم تشهد تطبيقات على أرض الواقع، أو أنها عرفت التطبيق. على أن ما وصلنا لا يفيدنا باليات محددة، وبالتالي أصبحت الفكرة فكرة مجردة، أو ضبابية، وحيث غابت الإليات فقد فهم الأولون أن الشورى تعطي الأمر والنهي لشخص واحد، هذا الشخص أطلق عليه في الفكر السياسي القديم، مسمى: ظل الله في أرضه.

الصعوبة هنا تكمن في إضفاء صفة التأيد الإلهي على أعمال بعض البشر، تجعل أولئك البشر معصومين، أو شبه معصومين، وبالتالي يصعب معارضة أعمالهم أو مناقشتها، على أن ما أساء إلى فكرة الشورى هو أن تاريخها مر بسنوات عصبية شهدت حروباً واسعة، هذه الحروب قامت باسم الله، أو باسم الدين، وهذا مما شوه سمعة فكرة الشورى، وقيل عنها إن الشورى تقف وراء كل متسلط أو جبار.

مرت الشورى بسنوات لم تطبق، ثم توارت بل واختفت من منظومة الفكر السياسي، دلالة ذلك أننا لا نجد في ما وصلنا من التراث اليوناني ادنى إشارة إلى فكرة الشورى. ومع مجيء الإسلام عادت فكرة الشورى، وقد نص القرآن الكريم عليها، بل يوجد سورة في القرآن الكريم تحمل عنوان «الشورى» وهذا له دلالة فكرية والسياسية، وقد دلت سيرة نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم على بعض اليات تطبيق الشورى.

عرفت الشورى طريق التطبيق في حقبة خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم، خصوصاً حقبة الخلفاء الأربعة الأولى والمثير أن كل خليفة انتخب بطريقة شوروية مختلفة، وهذا يدل على أن فكرة الشورى فكرة غير ناضجة، وبالتالي تتطلب تطبيقات مختلفة ومتعددة، وجاء اغتيال ثلاثة خلفاء من أربعة ضربة في الصميم لتجربة الشورى، ورأى بعض المؤرخين أن فكرة الشورى تحتاج إلى تقنين وتفسير واليات

• عضو مجلس الشورى